

## القرآن الكريم مصدر من مصادر التربية الإسلامية ( فهماً وتدبيراً )

صفية بنت عبدالله احمد بخيت\*  
جامعة أم القرى  
المملكة العربية السعودية/مكة

### ملخص البحث

القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة التي نزلت على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الكتاب المحفوظ من التحريف والتزوير، فلقد تعهد الباري سبحانه وتعالى بحفظ كتابه الكريم بقوله تعالى: ((إِنَّا نَحْنُ نُحْفِظُ الْقُرْآنَ وَنُحْفِظُ لَكَ لِحْفَظُونَ)) سورة الحجر آية 9، ولهذا اجتمع العلماء لدى جميع المذاهب الإسلامية هو أن القرآن الموجود بين أيدينا هو القرآن الذي نزل على رسولنا محمد صلى الله عليه وآله بلا أي زيادة ولا نقصان ولا تحريف، فالقرآن الكريم المصدر الأول للعالم الإسلامي .

- وإذا كان الأمر كذلك، فمن المهم أن نحدد الطريقة المثلى التي ينبغي أن نتعامل بها مع القرآن الكريم؟
- فينبغي أن نعرف ما هي الطريقة التي يجب أن نتبعها ونحن نقرأه؟
- وكيف ينبغي أن تكون علاقتنا به خصوصاً وهو معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم الخالدة؟!؟
- وهل المسلمون حالياً يتعاملون مع القرآن الكريم بالشكل المطلوب أم لا؟!؟

وما يدفعنا لطرح مثل هذه التساؤلات هو أننا مأمورون بالتدبير في القرآن الكريم، لقوله تعالى: ((أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)) سورة محمد: 24، وقوله تعالى: ((كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)) سورة ص آية 29، ومع ذلك نجد أن اهتمامنا به في هذا الجانب هو اهتمام ضئيل جداً بالمقارنة والمقايسة مع اهتمامنا به في جانب القراءة والحفظ .

### المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد

فإن التدبير لكتاب الله تعالى هو الغاية التي أنزل من أجلها قال تعالى : { كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ } [ ص: 29 ] ، وحين نبغى الوصول إلى مفهوم التدبير وحقيقته فلا بد من الوقوف على الأدلة من القرآن والسنة وأقوال السلف وأحوالهم في تعاملهم مع القرآن وتلقيهم له ، ذلك أن أعظم منهج لتدبير كتاب الله تعالى هو منهج التوفيق . وقد وردت الأدلة العامة الدالة على ذلك كما قال تعالى: (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) [النساء: 82] وقال تعالى: (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) [محمد: 24]، وقال جل وعلا: (أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين) [المؤمنون: 68]، وقال تعالى: (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) [ص: 29]. وقال جل وعلا: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) [الحشر: 21].

### أصل التدبير لغة :

بالنظر والإطلاع في أقوال أهل اللغة نجد أنها تتلخص في أن أصل معنى التدبير مأخوذ من النظر في أدبار الشيء وعواقبه ونهاياته ( ) .

ففي معجم مقاييس اللغة : " أصل التدبير من: دَبَرَ -بفتح الدال والباء-، وجُلَّهُ في قياس واحد، وهو : آخر الشيء، وخلفه؛ خلاف قُبُلُهُ" ( ) . .

وفي لسان العرب : " دَبَرَ الأمر وتدبره أي نظر في عاقبته وعرف الأمر تدبراً أي بآخره. فتدبر الكلام أي النظر في أوله وآخره ثم إعادة النظر مرة بعد مرة.. والتدبير في الأمر: التفكير فيه" ( ) .

وفي التعريفات للجرجاني : " التدبير: عبارة عن النظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التفكير، إلا أن التفكير تصرف القلب بالنظر في الدليل، والتدبير تصرفه بالنظر في العواقب" ( ) .

وفي المعجم الوسيط: " تدبر الأمر: ساسه ونظر في عاقبته " ( ) .  
المراد بتدبير القرآن:

\* الأستاذ المشارك، وزارة التعليم العالي كلية التربية بقسم التربية الإسلامية والمقارنة

يمكن لنا أن نحزر مفهوم تدبر القرآن بمعنى مختصر جامع شامل بإذن الله وهو :  
( الوقوف مع الآيات والتأمل فيها ، والتفاعل معها ؛ للانتفاع والامتثال ) .

بعض أقوال العلماء والمفسرين والباحثين في معنى التدبر .

1- قال الخازن: "أصل التدبر : النظر في عواقب الأمور، و التفكير في أديارها ،ثم استعمل في كل تفكر و تأمل ،و يقال :  
"تدبرْتُ الشيء" أي: نظرت في عاقبته ،و معنى تدبُر القرآن تأمُّلُ معانيه ،و التفكير في حِكْمِهِ ، و تبصُرُ ما فيه من الآيات"  
(.)

2- قال ابن القيم: "وتدبر الكلام أن ينظر في أوله وآخره ثم يعيد نظره مرة بعد مرة ولهذا جاء على بناء الفعل كالتجرع والتفهم  
والتبين"  
(.)

وقال أيضاً : " إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه ، وألق سمعك ، واحضر حضور من يخاطبه به  
من تكلم به سبحانه منه إليه ، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ( ρ ) ( . )

3- قال السيوطي : " وتسن القراءة بالتدبر والتفهم ...وصفة ذلك أن يشغل قلبه بالتفكر في معنى ما يلفظ به، فيعرف معنى كل  
آية ويتأمل الأوامر والنواهي ويعتقد قبول ذلك، فإن كان مما قصر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مرّ بآية رحمة  
استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوذ أو تنزيه نزه وعظم، أو دعاء تضرع وطلب." ( . )

4- قال الشوكاني: "إنَّ التدبر هو التأمل ؛ لفهم المعنى ،يقال: "تدبرْتُ الشيء". تفكرْتُ في عاقبته ،و تأملته،ثم استعمل في كل  
تأمل،و التدبير: أن يدبر الإنسان أمره ،كأنه ينظر إلى ما تصير إليه عاقبته" ( . )

5- قال السعدي: " يامر -تعالى- بتدبر كتابه، وهو التأمل في معانيه، و تحديق الفكر فيه،و في مبادئه و عواقبه، و لوازم ذلك" ( . )

6- قال الشنقيطي: " تدبر آيات هذا القرآن العظيم أي: تصفحها ،و تفهمها ،وإدراك معانيها ،و العمل بها " ( . )

7- قال عبدالرحمن حبنكة : " التفكير الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة " ( . )

8- وقال الدكتور أحمد آل سبالك : " أما المعنى الاصطلاحي لتدبر القرآن كما ورد في كتب التفسير فهو التفكير في غايات القرآن  
ومقاصده التي يرمي إليها ، ويأتي ذلك بالتفهم والتأمل والتفكر في معاني الآيات ومبانيها " ( . )

9- وقال سليمان السنيدي : " تدبر القرآن هو تفهم معاني ألفاظه ، والتفكر فيما تدل عليه آياته مطابقة ، وما دخل في ضمنها ،  
وما لا تتم تلك المعاني إلا به، مما لم يعرج اللفظ على ذكره من الإشارات والتبسيطات ، وانتفاع القلب بذلك ، بخشوعه عند  
مواظمه ، وخضوعه لأوامره ، وأخذ العبرة منه " ( . )

10- وقالت الدكتورة رقية العلواني : " والتدبر إعمالُ الذهن والفكر للتوصل إلى مقاصد الآيات وأهدافها ، وما ترمي إليه " ( . )

11- قال القرطبي: "حسَّ على تأمُّل مواضع القرآن، وبيَّن أنه لا عُذْرَ في تَرْكِ التدبر، فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبالُ - مع  
تركيب العقل فيها - لانقادت لمواعظه، ولرايتها - على صلابتها ورزانتها - خاشعةً متصدعةً، أي: متشفقة من خشية الله"(1)

#### التصريح على التدبر العام للقرآن:

وقد ورد ذلك في عدد من الآيات الكريمات منها:

أ - قوله تعالى: (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) [النساء: 82].

ب - قوله تعالى: ( أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) [محمد: 24].

ج - قوله تعالى : (أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين) [المؤمنون: 68].

د - قوله تعالى: (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) [ص: 29].

فقد دعا القرآن هنا إلى التدبر دعوة مباشرة صريحة، وأبان أنَّ عِلَّةَ إنزال القرآن؛ التدبُّرُ، ولا شكَّ أنها عِلَّةٌ عظيمةٌ قاندةٌ إلى كلِّ فلاحٍ  
وفوزٍ في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون)  
[الأعراف: 157].

#### الأسباب المعينة على تدبر القرآن الكريم

##### 1- معرفة الله تعالى وتعظيمه:

فإن معرفة الله سبحانه وتعظيمه هي الباب العظيم لتدبر كلامه جل وعلا ، فإن مَنْ امتلأ قلبه معرفة بالله وتعظيماً له؛ عَظَّمَ  
كلامه، وتمعَّنَ فيه، وأصغى إليه متأملاً متدبراً.

وقد أخبر سبحانه أن المشركين - وهم الذي لا يعرفونه حقَّ المعرفة - لا ينتفعون بهذا الكتاب الكريم، قال تعالى: (وما يستوي  
الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور) [فاطر: 22].

قال ابن جرير الطبري: " وما أنت يا محمد بمسمع من في القبور كتاب الله، فتهدبهم به إلى سبيل الرشاد، فكذلك لا تُفدّر أن ينفَع بمواعظ كتاب الله وبيانات حججه، مَنْ كان ميت القلب من أحياء عباده، عن معرفة الله، وفهم كتابه وتنزيله" (23).

وبين سبحانه أن سبب تكذيب المشركين؛ عدم معرفتهم لله حق المعرفة كما قال تعالى: (وأغرقتنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً

قال ابن عباس: "عميت قلوبهم عن معرفة الله وقدرته وشدة بطشه" (24). وقال السعدي: "فإن تمام العبادة، متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته أكمل" (25).

وقال: "فهذه الغاية المقصودة من الخلق والأمر: معرفة الله وعبادته، فقام بذلك الموفقون من عباد الله الصالحين، وأعرض عن ذلك، الظالمون المعرضون" (26).

ولا شك أن مطالعة التفاسير لا تكفي وحدها في تدبر القرآن ما لم ينضم إلى ذلك الإحساس والإيمان العميقان بأن هذا الكلام كلام الله تعالى (27).

قال سلم بن ميمون الخواص: "قلت لنفسي: يا نفس، اقري القرآن كأنك سمعته من الله حين تكلم به، فجاءت الحلاوة!" (28).

ولا شك أن تعظيم القرآن من تعظيم الله تعالى، فكما أنه سبحانه عظيم في ذاته، فإنه عظيم في صفاته ومنها كلامه القرآن، وقد سماه سبحانه برهاناً، ونوراً، وهدياً، وفرقاناً، وشفاء لما في الصدور، فعظمه عند المؤمنين؛ ليُعظّموا قدره ويفهموه، لينالوا شفاء قلوبهم (29).

قال الحارث المحاسبي: "إذا عظمت في صدرك تعظيم المتكلم به، لم يكن عندك شيء أرفع، ولا أشرف، ولا أنفع، ولا ألد، ولا أحلى، من استماع كلام الله عز وجل، وفهم معاني قوله، تعظيماً وحباً له وإجلالاً، إذ كان تعالى قائله، فحب القول على قدر حبه

قائله" (30).

وقد أحسن الإمام الغزالي في تصوير أثر ذلك التعظيم حيث يقول: "ولن تحضره عظمة المتكلم ما لم يتفكر في صفاته وجلاله وأفعاله. فإذا حضر بياله العرش والكرسي والسماوات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار، وعلم أن الخالق

لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد، وأن الكل في قبضة قدرته مترددون بين فضله ورحمته وبين نقمته وسطوته إن أنعم فبفضله وإن عاقب فبعد له، وأنه الذي يقول هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي وهذا غاية العظمى والتعالي. فبالفكر في أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم ثم تعظيم الكلام" (31).

## 2- التمهّل والثاني عند القراءة:

قال تعالى: (ورتل القرآن ترتيلاً) [المزمل: 4]، قال ابن كثير: "أي: اقرأه على تمهّل، فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره" (32).

والتمهّل في قراءة القرآن أدهى للفهم والتدبر، وهذه صفة قراءة النبي صلى الله عليه وآله كما ورد ذلك في عدة أحاديث منها:

- عن حفصة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى في سبحة قاعداً، حتى كان قبل وفاته بعام، فكان يصلي في سبحة قاعداً، وكان يقرأ بالسورة فيرتلها، حتى تكون أطول من أطول منها (33).

- وعن أنس: أنه سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: كانت مدّاً، ثم قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) يمد ب (بسم الله) ، ويمد ب (الرحمن) ، ويمد ب (الرحيم) (34).

- وعن أم سلمة: أنها سئلت عن قراءة رسول الله، فقالت: كان يقطع قراءته آية آية، (بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين) [الفاحة: 1 - 4] (35).

- وعن ابن مسعود أنه قال: لا تنتروه نثر الدقل ولا تهدّوه هذ الشعر، ففوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر

السورة (36) وعن أبي وائل قال: جاء رجل إلى ابن مسعود فقال: قرأت المفصل الليلة في ركعة، فقال: هذا كهذ الشعر، لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرن بينهن، فذكر عشرين سورة من المفصل سورتين من آل حم في كل ركعة (37).

## 3- فهم القرآن:

فهم القرآن هو أساس التدبر الصحيح، وذلك بفهم المراد من كلام الله تعالى، وفهم القرآن شامل لفهم معنى الآيات - بحيث يفهم القارئ معاني الكلمات، ويقرأ تفسيرها - وفهم المقصود من إيراد الآيات: وبهذا يفهم القارئ مقاصد القرآن.

قال ابن جرير الطبري: "وفي حثّ الله عز وجل عباده على الاعتبار بما في أي القرآن من المواعظ والبيّنات... ما يدل على أنّ عليهم معرفة تأويل ما لم يُحجب عنهم تأويله من آيه. لأنه محال أن يُقال لمن لا يفهم ما يُقال له ولا يعقل تأويله: "اعتبر بما لا فهم لك

به ولا معرفة من القيل والبيان والكلام"- إلا على معنى الأمر بأن يفهمه ويفقهه، ثم يتدبره ويعتبر به. فأما قبل ذلك، فمستحيل أمره بتدبره وهو بمعناه جاهل. كما محال أن يقال لبعض أصناف الأمم الذين لا يعقلون كلام العرب ولا يفهمونه"(38). وينبغي للقارئ أن يبتعد عن موانع الفهم كالتكلف في القراءة والانشغال بها عن الفهم، واتباع الهوى فإنه من أعظم موانع تدبر القرآن

4-تحسين الصوت عند القراءة:

وللصوت الحسن أثرٌ كبيرٌ في تدبر كلام الله تعالى، وقد حثَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم على تزيين الصوت عند القرآن فقال: ( زينوا القرآن بأصواتكم ) (39).

وقال صلى الله عليه وسلم: (ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن) (40). قال ابن كثير: "قد فهم من هذا أن السلف - رضي الله عنه - إنما فهموا من التغني بالقرآن: إنما هو تحسين الصوت به، وتحزينه، كما قاله الأئمة، رحمهم الله" (41).

وقال: "والمراد من تحسين الصوت بالقرآن: تطريبه وتحزينه والتخشع به" (42).

وقال النووي: "أجمع العلماء- رضي الله عنهم- من السلف والخلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء الأمصار أئمة المسلمين على استحباب تحسين الصوت بالقرآن، وأقوالهم وأفعالهم مشهورة نهاية الشهرة، فنحن مستغنون عن نقل شيء من أفرادها، ودلائل هذا من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ مستقبضة عند الخاصة والعامة" (43).

والمطلوب من تحسين الصوت الوصول للخشوع والتأثر، قال السندي: "المطلوب من تحسين الصوت بالقرآن أن تنتج قراءته خشية الله فمن رأيت فيه الخشية فقد حسن الصوت بالقرآن المطلوب شرعاً فيعد من أحسن الناس صوتاً" (44).

5- فهم لوازم النص ومقاصده:

وهذا من أعظم أسباب تدبر القرآن الكريم، فإن القرآن كثيراً ما يذكر في القصص مواطن العبرة، ويترك للفؤاد والعقل مطلق التأمل والتدبر في ما لم يذكر، وقد يختم الآية بعلّة لم تعلق بشيء، ليتأمل العقل، كما قال تعالى: (ألهاكم التكاثر، حتى زرتم المقابر) [التكاثر]:

قال الشوكاني: "ولم يقل عن كذا، بل أطلقه؛ لأن الإطلاق أبلغ في الذم؛ لأنه يذهب الوهم فيه كلّ مذهب، فيدخل فيه جميع ما يحتمله المقام، ولأن حذف المتعلق مشعر بالتعميم، كما تقرّر في علم البيان" (45). ويدخل في هذا السبب معرفة مقاصد سور القرآن وآياته، وهو باب عظيم لتدبر القرآن الكريم، وتطبيقاته في كتب التفسير كثيرة.

وهذا السبب مؤثر جداً في التدبر، خاصة في القصص القرآني، والأمثال القرآنية المصدر: فكانت الحكمة من إنزاله {ليدبروا آياته}.

التدبر: "هو التفكير والتأمل الذي يبلغ به صاحبه معرفة المراد من المعاني، وإنما يكون ذلك في كلام قليل اللفظ كثير المعاني التي أودعت فيها بحيث كلما ازداد المتدبر تدبراً انكشفت له معان لم تكن بادية له بادئ النظر" (1)،

وتدبر الآيات يكون بالنظر في عواقبها وما تشير من دلالات وعبر، وما توصل إليه من المعاني الباطنة الخفية، والنكت اللطيفة، والتي لا تحصل إلا بطول التأمل والنظر في كتاب الله تعالى، وبذلك تحصل الفائدة المرجوة من تلاوة القرآن الكريم، ومثل من يشتغل بحفظ الحروف والكلمات دون أن يغوص في معانيها مدلولاتها كمن لديه لقحة درور لا يحلبها، ومهرة نتوج لا يستولدها، ومن كان على تلك الحالة كان جديراً بأن لا يستفيد من كتاب الله الفائدة المرجوة (2)، قال الحسن: "تدبر آيات الله اتباعها" (3)، وأخرج سعيد بن منصور عن الحسين رضي الله عنه أنه قال في قوله {ليدبروا آياته} "اتباعه بعمله" (4).

لما أنزل الله كتابه على عباده وضمنه تعاليمه، أراد من عباده أن يتخذوا هذا القرآن دستوراً ومنهجاً يسرون عليه ويرجعون إليه، ويحتكمون إلى تعاليمه وآياته، ولن يحصل ذلك إلا بتدبر آياته وفهم عباراته، والوقوف على مقصود الله سبحانه وتعالى من كتابه، ولما كان حصول المقصود من إنزال القرآن الكريم لا يتم إلا بالتدبر لهذا الكتاب الكريم أمر الله بذلك فقال {ليدبروا آياته} "وأصله {ليدبروا} فأدغمت التاء في الدال، متعلق بـ{أنزلناه} (5)، ومعناه ليتفكروا فيها، فيقفوا على ما فيه ويعملوا به، وعن الحسن: "قد قرأ هذا القرآن عبيدٌ وصبيان لا علم لهم بتأويله، حفظوا حروفه وضيعوا حدوده" (6)، قال الإمام الزمخشري: "تدبر الآيات

(1) التحرير والتنوير: 252/23

(2) نظم الدرر: 381/6

(3) الجامع لأحكام القرآن: 126/8 .

(4) الدر المنثور: 578/5

(5) نظم الدرر: 381/6، فتح القدير: 494/4

(6) محاسن التأويل: 97/6.

التفكر فيها والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة، لأن من اقتنع بظاهر المتلو لم يخل<sup>(7)</sup> منه بكثير طائل<sup>(8)</sup>.

ثم عقب بذكر الغاية من إنزال القرآن الكريم وهو التدبر<sup>(9)</sup>، قال أبو عبد الرحمن السلمي: "قال بعضهم: لا سبيل إلى فهم كتاب الله إلا بقراءته والتفكر والتيقظ والتذكر وحضور القلب فيه"<sup>(10)</sup>، "وقال بعضهم: من أصابته بركة القراءة رزق التدبر في آياته، ومن رزق التدبر لم يحرم التذكر والاتعاظ به"<sup>(11)</sup>، قال الإمام الطبري: "ليتدبروا حجج الله التي فيه، وما شرع فيه من شرائعه، فيتعظوا ويعملوا به"<sup>(12)</sup>.

وقوله {ليدبروا} متعلق بـ{أنزلناه}، ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف يدل عليه، وأصله ليتدبروا بتاء بعد الياء،.. وبه قرأ علي رضي الله عنه، والمراد أنزلناه ليتفكروا في آياته التي من جملتها هذه الآية المعربة عن أسرار التكوين والتشريع فيعرفوا ما يدبر ويتبع ظاهرها من المعاني الفاتحة والتأويلات اللائقة<sup>(13)</sup>، ومضمون الآية يشير إلى حكمة إنزال القرآن، فلم ينزله الله تعالى ليتباهى الناس، ويتمارى به الحفاظ، دون اعتناء بمضمونه، واستخراج لمكنونه، وأخذ بمراده ومطلوبه، قال ابن عطية: "وظاهر هذه الآية يعطي أن التدبر من أسباب إنزال القرآن، فالترتيل إذاً أفضل من الهذّ إذ التدبر لا يكون إلا مع الترتيل"<sup>(14)</sup>، فالتأني في التلاوة له أثر كبير في حصول التدبر، إذ كيف يتدبر آيات القرآن من ينظر إلى آخر السورة، أو يستهويه الكمّ، ولا يبالي بالكيف.

### ثمرات تدبر القرآن الكريم

عند تأصيل منهج تدبر القرآن الكريم؛ لابد من ذكر الثمرات التي يُرجع إليها لمعرفة المنهج الصحيح لتدبر القرآن الكريم، حيث قد وُجد خلط بين بعض السلوكيات المصاحبة لتلاوة القرآن الكريم، وبين تدبر القرآن الكريم، فظنَّ كلُّ من عمِلَ عملاً متأثراً بالقرآن أنّ ذلك نتيجة التدبر، وهو غير صحيح.

نتيجة التدبر {وليتذكر ألوا الأبواب}.

لقد بين المولى سبحانه وتعالى الحكمة البالغة من إنزال كتابه، وأنه إنما أنزله ليتدبره المؤمنون، ويعتبروا بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، فتورثهم ذكرى، وخوفاً وخشية، فثمرة التدبر هي التذكر، والاستجابة لأمر الله سبحانه وتعالى، ولذلك أعقب التدبر حصول أثره، فليس بعد التدبر إلا حصول الذكرى لأولي الأبواب، ولذلك قال {وليتذكر ألوا الأبواب} "أي وليتعظ بالقرآن أولوا العقول"<sup>(15)</sup>، والأبواب جمع لب، و"اللب هو العقل الخالص من الشوائب، وسمي بذلك لكونه خالصاً ما في الإنسان من معانيه، وقيل هو ما زكى في العقل، فكل لب عقلٌ وليس كل عقل لباً، ولهذا علق الله تعالى الأحكام التي لا يدركها إلا العقول الزكية بأولي الأبواب"<sup>(16)</sup>، قال الألوسي: "أي وليتعظ به ذوو العقول الزكية الخالصة من الشوائب أو ليستحضرها ما هو كالمركز في عقولهم لفرط تمكنهم من معرفته لما نصب عليه من الدلائل فإن إرسال الرسل وإنزال الكتب لبيان ما لا يعرفه إلا من جهة الشرع كوجوب الصلوات الخمس، والإرشاد إلى ما يستقل العقل بإدراكه كوجود الصانع جل جلاله وعم نواله"<sup>(17)</sup>، قال ابن جرير: "وليعتبر ألوا العقول والحجا ما في الكتاب من الآيات، فيرتدعوا عما هم عليه مقيمين من الضلالة، وينتهوا إلى ما دلهم عليه من الرشاد وسبيل الصواب"<sup>(18)</sup>، قال الحسن البصري: "والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول قرأت القرآن كله فما أسقطت منه حرفاً وقد والله أسقطه كله، ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل، والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة، لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء"<sup>(19)</sup>، وخلاصة كلام الأئمة أن الله إنما أنزل كتابه ليفهم مضمونه، ويطبق على واقع حال المسلم، فليس الهدف من إنزال القرآن الترنم بتلاوته والتمايل عند قراءته، والتغني بآياته، والتفنن بقراءات ورواياته، وإظهار روعة الأداء، وجودة التجويد، واستعراض البراعة في قوة حفظه، والتباهي بجميع ذلك؛ مع إغفال جانب الفهم والتدبر والتفكير في آياته، والانصراف عن تلقف معاني وتوجيهاته بالعمل والتطبيق، ولذلك فقد خصَّ الله التذكر وقصره على أولي الأبواب، وذلك هو القصد والمراد من إنزال القرآن على سيد الأنبياء والمرسلين، فإن الله تعالى أعقب الإخبار بإنزال القرآن على محمد صلى

(7) أي لم يستفد منه كبير فائدة.

(8) تفسير الزمخشري: 90/4.

(9) نظم الدرر: 381/6.

(10) حقائق التفسير: 185/2.

(11) حقائق التفسير: 185/2.

(12) تفسير الطبري: 576/10.

(13) روح المعاني: 181/12.

(14) المحرر الوجيز: 503/4.

(15) تفسير النسفي: 61/4، فتح القدير: 494/4.

(16) مفردات ألفاظ القرآن: 733، فتح القدير: 494/4.

(17) روح المعاني: 181-182.

(18) جامع البيان: 576/10.

(19) تفسر ابن كثير: 34/4، محاسن التأويل: 97/6.

الله عليه وسلم بأمر مهم لابد أن يرافق الإنزال ويحصل معه ، وهو التدبر ومن ثم التذکر والاعتبار والانقياد ، والملاحظ أن الله أعقب الأخبار بإنزال القرآن الأمر بالتدبر مباشرة ، ولم يذكر الحلقة التي تصل بين إنزال القرآن والتدبر وهي التلاوة ، حيث لم يقل (كتاب أنزلناه إليك ليقرؤوا ويتدبروا آياته ..)، وفي ذلك إشارة إلى أهمية المبادرة إلى التدبر الذي يعقبه التذکر والاعتبار ، وذلك يؤكد أهمية استحضر جانب التدبر أثناء القراءة ، بل يجب على المسلم أن يهيئ نفسه لتدبر القرآن قبل أن يشرع بتلاوته.

بل لابد من التمعن في هذه الثمرات، وقياس الإنسان نفسه عليها حتى يعلم موافقته للتدبر الصحيح من عدمها. ومن تلك الأصول ما يأتي:

**الثمرة الأولى:** التدبر الصحيح يهدي إلى الإيمان ويزيده:

وقد دلَّ على ذلك أدلة من كتاب الله تعالى منها:

أ - قال تعالى: (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون) [التوبة: 124].

ب - وقوله تعالى: (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون) [الأنفال: 2].

فالآية الأولى صريحة في زيادة إيمان المؤمنين بسبب ما أنزل من القرآن الكريم، وإنما يكون ذلك عند تأمل القرآن وتدبره وفهم ما فيه، مما ينتج عنه الخوف والفرح والرجاء بما عند الله، والعمل بما يتضمن من أوامر ونواهٍ.

قال مجاهد والسدي وغيرهما: (وجلَّت قلوبهم): فرقت، أي: فرغت وخافت (46).

وقال الربيع بن أنس: " (زادتهم إيماناً): زادتهم خشية" (47).

وليس مجرد السَّماع كافيًا في حصول ذلك الإيمان، فإن المشركين قد سمعوا القرآن ولكن كان عملهم الإعراض والكفر والتكذيب والاستهزاء والتولي وعدم العمل، كما قال تعالى: (وإذا ما أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأنذك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نحن مع القاعدين) [التوبة: 86]، وقال: (وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) [التوبة: 127]، وقال تعالى: (ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم) [محمد: 20]، وقال تعالى: (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون) [القلم: 51].

فتزيدهم لذلك الآيات رجساً وكفراً، كما قال تعالى: (وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون) [التوبة: 125].

وأما المؤمنون فإنهم بخلاف ذلك كما قال ابن كثير: "وهذه صفة المؤمن حق المؤمن، الذي إذا ذكر الله وجل قلبه، أي: خاف منه، ففعل أو امره، وترك زواجه" (48).

وقال في قوله تعالى: (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً) [الفرقان: 73] (49): "أي: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مصغين إليها، فاهمين، بصيرين بمعانيها؛ فلهذا إنما يعملون بها، ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم" (50).

وقال السدي: " (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً): ووجه ذلك أنهم يلقون له السمع ويحضر قلوبهم لتدبره، فعند ذلك يزيد إيمانهم، لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلون، أو يتذكرون ما كانوا نسوه، أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياًفاً إلى كرامة ربهم، أو وجلاً من العقوبات، وازدجاراً عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان" (51).

والمؤمن يقيس تدبره بهذا الأصل العظيم؛ فإن أورثه إيماناً بالله، وتصديقاً برسوله ؛ فهو على جادة السلف الصالح في تدبر القرآن، وإن كانت تلاوته مجرد ألفاظ يرددتها أو أصوات يسمعها فإنه لم يصل بعد إلى المعنى الحقيقي لتدبر القرآن الكريم.

**الثمرة الثانية:** التدبر يبعث على الخشية والخوف والرجاء والدمع:

وقد دلَّ على ذلك آيات منها:

أ - قوله تعالى: (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تفشع منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضل الله فما له من هاد) [الزمر: 23].

ب - وقوله تعالى: (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) [المائدة: 83].

قال ابن كثير: "هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد. والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، (ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه" (52).

وقد وصف الله الذين أوتوا العلم بالخشوع والبكاء عند استماع القرآن، قال تعالى: (وقرآنًا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً، قل آمنوا به أولاً تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً، ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً، ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً) [الإسراء: 106 - 109].

التدبر الصحيح يبعث على التأثر بلا تكلف:

وهذا هو حال الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، والتابعين رحمهم الله، فقد كان تدبرهم للقرآن أعظم التدبير وأعلاه، مؤثراً العمل والإيمان والتأثر بلا تكلف، وقد نبه العلماء إلى حال بعض الناس الذين فهموا التدبير على غير وجهه، فكان تدبرهم صراخاً وعويلًا وتكلفًا، ومن تلك الأقوال التي تحذر من ذلك:

- قال عروة بن الزبير: قلت لجدي أسماء بنت أبي بكر: كيف كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعلون إذا قرئ عليهم القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله عز وجل: تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم. قال فقلت لها: إن ناسًا اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خرَّ أحدُهم مغشيًا عليه، فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (53).

- وقال عكرمة: سئلت أسماء بنت أبي بكر: هل كان أحد من السلف يُغشى عليه من الخوف؟ قالت: لا، ولكنهم كانوا يبكون (54).

- وعن ابن عمر أنه مر برجل من أهل العراق ساقطًا، فقال: ما بال هذا؟ قالوا: إنه إذا قرئ عليه القرآن أو سمع ذكر الله سقط، قال ابن عمر: إنا لنخشى الله وما نسقط! (55). وقال ابن عمر: إن الشيطان ليدخل في جوف أحدهم، ما كان هذا صنيع أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم (56).

- وقال عامر بن عبد الله بن الزبير: جنث أبي، فقال لي: أين كنت؟ فقلت: وجدت قومًا ما رأيت خيراً منهم قط، يذكرون الله عز وجل فيرعد واحد منهم حتى يُغشى عليه من خشية الله عز وجل، فقعدت معهم، فقال: لا تقعد معهم بعدها أبداً. قال: فرأني كأنني لم يأخذ ذلك في، فقال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن، ورأيت أبا بكر وعمر يتلوان القرآن فلا يُصيبيهم هذا من خشية الله تعالى، أفترى أنهم أخشى لله من أبي بكر وعمر، قال: فرأيت ذلك كذلك (57).

- وقال قتادة بعد أن تلا قوله تعالى: (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) [الزمر: 23]: "هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله بأن تقشعر جلودهم، وتبكي أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما هذا في أهل البدع، وهذا من الشيطان" (58).

- وذكر عند ابن سيرين الذين يصرعون إذ قرئ عليهم القرآن؟ فقال: بيننا وبينهم أن يقعد أحدهم على ظهر بيت باسطاً رجليه ثم يقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره، فإن رمى بنفسه فهو صادق (59).

- وكان جَوَابُ يُرْعَدُ عند الذُّكْرِ، فقال له إبراهيم النخعي: إن كنت تملكه، فما أبالي أن لا أعتد بك، وإن كنت لا تملكه، فقد خالفت من كان قبلك (60).

- وقال القرطبي: "الخوف إذا سكن القلب أوجب خشوع الظاهر فلا يملك صاحبه دفعه فتراه مطرقاً متأدباً متذلاً، وقد كان السلف يجتهدون في ستر ما يظهر من ذلك. وأما المذموم فتكلفه والتباكي ومطاطأة الرأس كما يفعله الجهال لئروا بعين البر والإجلال وذلك خدع من الشيطان وتسويل من نفس الإنسان" (61).

- وقال أيضاً: "فهذه حالة العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطغام من الزعيق والزئير ومن النهاق الذي يشبه نهاق الحمير. فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وجد وخشوع: لم تبلغ أن تساوي حال الرسول ولا حال أصحابه في المعرفة بالله، والخوف منه، والتعظيم لجلاله، ومع ذلك فكانت حالهم عند المواضع الفهم عن الله والبكاء خوفاً من الله. ولذلك وصف الله أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه فقال: (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا أننا فاكنتنا مع الشاهدين) [المائدة: 83]، فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم. ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقهم، فمن كان مستنأ فليستن، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من أخسهم حالاً، والجنون فنون" (62).

- وقال ابن كثير في بيان وجوه مخالفة المؤمنين للفجار عند سماع القرآن: "أنهم يلزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة رضي الله عنهم عند سماعهم كلام الله من تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله. لم يكونوا يتصارعون ولا يتكلفون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك؛ ولهذا فازوا بالقدح المَعْلَى في الدنيا والآخرة" (63).

هذا هو المنهج المعروف عن مجمل السلف الصالح رحمهم الله في تدبر القرآن الكريم، وقد وُجِدَتْ استثناءاتٌ من بعضهم نبّه عليها العلماء:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وَالَّذِي عَلَيْهِ جُمُهورُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْ هَوْلَاءِ إِذَا كَانَ مَعْلُوبًا عَلَيْهِ لَمْ يَنْكُرْ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ خَالَ النَّابِتِ أَكْمَلَ مِنْهُ؛ وَلِهَذَا لَمَّا سُئِلَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ هَذَا، فَقَالَ: فُرِيَ الْقُرْآنُ عَلَى يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ الْقَطَّانِ فَعُشِيَ عَلَيْهِ وَلَوْ قَدَرَ أَحَدٌ أَنْ يَدْفَعَ هَذَا عَنْ نَفْسِهِ لَدَفَعَهُ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ فَمَا رَأَيْتَ أَعْقَلَ مِنْهُ وَتَحَوَّ هَذَا. وَقَدْ نُقِلَ عَنِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ أَصَابَهُ ذَلِكَ وَعَلِيُّ بْنُ الْفَضِيلِ بْنُ عِيَّاضٍ قِصَّتُهُ مَشْهُورَةٌ. وَبِالْجُمْلَةِ فَهَذَا كَثِيرٌ مِمَّنْ لَا يُسْتَرَابُ فِي صِدْقِهِ. لَكِنَّ الْأَحْوَالَ الَّتِي كَانَتْ فِي الصَّحَابَةِ هِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي الْقُرْآنِ وَهِيَ وَجَلَّ الْقُلُوبِ وَدُمُوعُ الْعَيْنِ وَأَفْشَعَارُ الْجُلُودِ... وَقَدْ يَدُمُّ حَالٌ هَوْلَاءِ مَنْ فِيهِ مِنْ قَسْوَةِ الْقُلُوبِ وَالرَّيْنِ عَلَيْهَا وَالْحَفَاءِ عَنِ الدِّينِ مَا هُوَ مَذْمُومٌ وَقَدْ فَعَلُوا وَمِنْهُمْ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ حَالَهُمْ هَذَا أَكْمَلُ الْأَحْوَالِ وَأَتَمُّهَا وَأَعْلَاهَا وَكَلَا طَرْفِي هَذِهِ الْأُمُورِ دَمِيمٌ... وَلَكِنْ مَنْ لَمْ يَزَلْ عَقْلُهُ مَعَ أَنَّهُ قَدْ حَصَلَ لَهُ مِنَ الْإِيمَانِ مَا حَصَلَ لَهُمْ أَوْ مِثْلُهُ أَوْ أَكْمَلَ مِنْهُ فَهُوَ أَفْضَلُ مِنْهُمْ. وَهَذِهِ حَالُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَهُوَ خَالَ نَبِيَّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ وَرَأَاهُ اللَّهُ مَا رَأَاهُ وَأَصْبَحَ كَيَابِتٌ لَمْ يَتَغَيَّرْ عَلَيْهِ... وَمَنْ خَافَ اللَّهَ خَوْفًا مُقْتَصِدًا يَدْعُوهُ إِلَى فِعْلٍ مَا يُجِبُّهُ اللَّهُ وَتَرَكَ مَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الزِّيَادَةِ فَحَالُهُ أَكْمَلُ وَأَفْضَلُ مِنْ خَالَ هَوْلَاءِ وَهُوَ خَالَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ..."

وَالصَّوَابُ: لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخَيْرَ الْقُرُونِ الْقُرْنُ الَّذِي بُعِثَ فِيهِمْ وَأَنَّ أَفْضَلَ الطَّرِيقِ وَالسَّبِيلِ إِلَى اللَّهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ وَيُعْلَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَّقُوا اللَّهَ بِحَسَبِ اجْتِهَادِهِمْ وَوُسْعِهِمْ" (64).

### الثمرة الثالثة: التدبر يورث العمل:

فإن تدبر القرآن لا يقف بالمؤمن عند مجرد السماع والتأثر، بل يتعدى ذلك إلى العمل والاستجابة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا أصلٌ عظيم من أصول التدبر، وإلا فقد ذمَّ الله اليهود الذين يزعمون أنهم آمنوا بالكتاب، والحال أنهم لا يعملون به، قال تعالى: (وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين) [البقرة: 91].

وقال الشيخ السعدي: " وكذلك لما كان العلم الشرعي يقتضي العمل به، والانقياد لكتب الله ورسوله، قال تعالى عن أهل الكتاب المنحرفين: (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون) [البقرة: 101] (65).

### حال السلف مع تدبر القرآن الكريم:

للسلف مع تدبر القرآن الكريم أحوال وأخبار، ومن ذلك ما روي عن مسروق قال: قال لي رجل من أهل مكة؛ هذا مقام أخيك تميم الداري، لقد رأيته ذات ليلة حتى أصبح أو قرَّب أن يصبح يقرأ بأية من القرآن يركع فيها ويسجد ويبيكي {أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون} [الجاثية: 21] (20)، وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: "لأن أقرأ في ليلة سورة أتدبرها وأفكر فيها أحب إلي من أن أقرأ القرآن" (21)، قال الليث ويلغنا أن رجلاً قال لابن مسعود رضي الله عنه قرأت المفصل في ركعة، فقال له ابن مسعود رضي الله عنه: هذا كهذا الشعر، أو نثرأ كنثر الدقل" (22)، وصلى الربيع بن خثيم فقرأ بأية حتى أصبح {أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات} [الجاثية: 21] فجعل يرددتها حتى أصبح (23)، وردد النبي صلى الله عليه وسلم آية {إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم} [المائدة: 118] (24)، وعن سعيد بن عبيد قال رأيت سعيد بن جببر وهو يومهم في رمضان يردد هذه الآية {إذ الأغلال في أعناقهم} [غافر: 71] و{يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم} [الانفطار: 6] يرددتها مرتين أو ثلاثاً (25)، وروي عن محمد بن كعب القرظي رضي الله عنه يقول: "لأن أقرأ {إذا زلزلت} و{القارعة} ليلة أرددهما وأفكر فيهما أحب إلي من أن أبيت أهد القرآن" (26)، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "لا تهذوا القرآن كهذا الشعر ولا تنتروه نثر الدقل وقفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب" (27)، وسئل مجاهد عن رجلين قرآن أحدهما البقرة وقرأ الآخر البقرة وآل عمران فكان ركوعهما وسجودهما وجلوسهما

(20) فضائل القرآن للمستغفري: 161/1.

(21) كتاب فضائل القرآن للمستغفري: 161/1.

(22) كتاب فضائل القرآن للمستغفري: 162/1.

(23) رواه ابن أبي شيبة رقم الأثر: 8371.

(24) سنن ابن ماجه، باب ما جاء في القراءة في صلاة الليل، حديث رقم 1350

(25) ابن أبي شيبة برقم: 8369

(26) ابن أبي شيبة برقم: 8732

(27) ابن أبي شيبة برقم: 8733

سواء أيهما أفضل ، قال الذي قرأ البقرة، ثم قرأ مجاهد {وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً} [الإسراء:106]، والآثار في شأن السلف مع تدبر القرآن الكريم كثيرة ، نكتفي بهذه الإلماحة اليسيرة.

### طريقة اكتساب ملكة التدبر:

تدبر القرآن الكريم أمرٌ مبذول لكل من قرأ آياته ، ويمنحه المولى سبحانه وتعالى لكل من أشغل به ، وأعمل ذهنه فيه ، وقد بين الله أن القرآن أغلبه مفهوم المعنى ، واضح الدلالة، فقال: {منه آيات محكمات هن أم الكتاب} [آل عمران:7]، فلا يستعصي على الأفهام ، ولا تكل في فهمه الأذهان ، ولا تقف أمام مراده العقول ، بل هو ظاهر المعنى ، واضح المراد ، ولذلك أنزله الله بلسان قومه ليسهل عليهم فهمه ، وليكون في متناول الجميع ، فيفهمه العامي قبل العالم ، ويدركه الصغير والكبير ، فإذا فهم المعنى والمراد حصل التدبر والتأمل.

وبما أن القرآن الكريم قريب من الأفهام ، يسهل تدبره ، ويمكن إعمال الذهن فيه ، فقد أمر الله عباده بتدبره ، ومحاولة فهم مراميه ومقاصده ، ومن المعلوم أن الله لا يأمر عباده إلا بما يقدر عليهم ، ويسهل انقيادهم إليه ، ويمكنهم القيام به ، ومن غير الصواب أن يؤمر العاجز بما لا يقدر عليه ، فتبين بما مضى أن الله أمر عباده بما يمكنهم الاستجابة له والقيام به ، وقد أمرهم بتدبر القرآن والتذكر بما فيه من وعد ووعد ، وأمر ونهي وزجر شديد ، ومن عجيب شأن تدبر القرآن الكريم أن لفظه يحتمل ما فيه معاني ودلالات إذا لم تعارض مقاصد الدين وأصوله ، ولم يعارضه صريح تفسير المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك فهو غني بالهدايات التي من الممكن استنباطها من آياته وكلماته.

لقد جاءت النصوص الشرعية محذرة من الاقتصار على حفظ اللفظ ، بعيداً عن فهم المعاني السامية التي تحملها الآيات ، مبينةً مغية ذلك على الفرد والمجتمع ، فمن لم تربى معاني الآيات قلبه ولم تكسبه الخشوع والخشية ، فإنها حتماً ستحملة على التعالم والتعالي والاعتزاز بحفظ رسم القرآن ، دون فهم لما يحويه نظمه أو تحمله كلماته ، وقد جاءت الآثار مبينة بعض معالم من اقتصر على حفظ رسمه دون فهم دلالة نظمه ، ومنتقدة قصورهم في ذلك ، فقال حذيفة رضي الله عنه يصف أولئك: "إن من أقرأ الناس منافقاً لا يترك واوياً ولا ألفاً يلفته بلسانه كما تلتفت البقرة الخلا بلسانها لا يتجاوز ترقوته" (28)، وأن ذلك الحفظ لم يعمق الإيمان في قلوبهم ولذلك تراهم "يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية" (29)، فهم على شفا جرفٍ هارٍ ، يعبدون الله على حرف ، وسرعان ما ينكصون على أعقابهم ، وقال عليه الصلاة والسلام مبينا بعض علاماتهم التي توحى بإيمان عميق ، وتمسك بالدين راسخ ، ولكنهم في الحقيقة على خلاف ذلك بسبب خلو قلوبهم وعقولهم من الفهم والمعرفة بكتاب الله تعالى "تحقرون صلاتكم إلى صلاتهم وصيامكم إلى صيامهم" ، فهم يقيمون حروفه ويضيعون حدوده ، وبالتالي تتضح أهمية اجتماع الأمرين الحفظ والفهم الناشيء عن تدبر كتاب الله تعالى ، ثم العمل بما حفظ ،

لذا فإن من أهم الوجبات على المؤسسات التي تتولى الإشراف على حلقات تحفيظ القرآن الكريم أن تراعي الجانبين وتوازن بين الطرفين .

يترتب على ما مضى من بيان خطورة الاقتصار على الحفظ بعيداً عن الفهم ، أهمية تغليب جانب الفهم على جانب الحفظ ، وأن الحافظ لن يجوز فضل حفظ كتاب الله تعالى إلا باستقامته على ما أمر الله به في كتابه ، وذلك أنه إن خالف مدلول معانيه فسيكون حجة عليه يوم القيامة ، وإن استقام عليه نال أعلى الفضائل وارتقى أعلى الرتب ، ولذلك قال في الحديث "يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها" (30)، فقال "صاحب القرآن" ولم يقل حافظ أو قارئ القرآن ، ومن المعلوم أن صاحب هو الملازم المتأثر بصاحبه من كثرة صحبته ، وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أن أول من تسعر بهم النار يوم القيامة ثلاثة ، قارئ القرآن والمجاهد والعالم ، وأول أولئك الثلاثة قارئ القرآن الذي لا يعمل به (31)، وقد ذكر المصطفى صلى الله عليه وسلم أن شفاعة القرآن الكريم لأصحابه (32)، وفي ذلك إيضاح وبيان لسمات أهل القرآن وأنهم هم الذين يعملون به في الدنيا ، وليس الذين يحفظونه في صدورهم فحسب ، و الدليل على ذلك أن الله وبخ الذين لا يتدبرونه ولم يوبخ الذين لا يحفظونه عن ظهر قلب ، فقال {أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها} [سورة محمد:24] ، وقال {أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً} [النساء:82] ، وقال {أفلم يدبروا القول ...} [المؤمنون/68] ، ولم يرد في القرآن الكريم ما يدل على الأمر بالحفظ ، بل لم يرد الأمر بذلك في السنة النبوية .

(28) ابن أبي شيبة برقم:8736

(29) صحيح البخاري ، كتاب استنابة المرتدين والمعاندين وقتالهم ، باب قتل الخوارج والملحد بعد إقامة الحجة عليهم ، حديث رقم:6931 ص:1279 .

(30) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب استحباب الترتيل في القراءة ، حديث رقم:

(31) صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار ، حديث رقم:1905 ص:850

(32) صحيح مسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة ، رقم الحديث: 804